من تراب الطريق (٥٣٦)

ماذا يتعاقب على وعينا ؟!(*) (١)

يبدو أن ما نسميه الخاطر أو الصورة أو التصور، أو ما نسميه أبعاض التفكير أو الفكر أو الخيال .. يتعاقب على وعينا بلا انقطاع .. وهو تعاقب يجرى حسب الشاغل الذى يشغلنا أى يشغل اهتمامنا أو التفاتنا بأى قدر .. عاطفيا كان ذلك أو غير عاطفى .. وحسب اللحظة ونتيجة قرب الشاغل وعلى مقدار قربه فيها .. أى فى تلك اللحظة ..

والشاغل إذا قرب وألحّ، ألحّت على وعينا الصور المتعلقة به بحسب اعتيادنا أو بحسب قربها مما اعتدنا عليه من أمثالها وأشباهها ولم تترك مكانا لسواها فى وعينا .. فإذا خف إلحاحها أخذت فى التباعد، وأخذت صورة أخرى متعلقة بشاغل آخر أخذت تتسرب إلى الظهور فى الوعى ثم الوضوح فيه .. إلى أن تختفى ليظهر غيرها .. وهكذا بكيفية لا يسهل علينا متابعتها .. لأنها لا تخضع لإرادتنا فى الأغلب الأعم .. إلاّ حين نتعمد التفكير فى شىء معين يهمنا التركيز عليه فى وعينا واستدعاء ما يمكن استدعاؤه لأجله من ذاكرتنا ومخيلتنا وحواسنا ..

ولوحة وعينا لا تخلو قط بأى لحظة من يقظتنا من صورة أو فكرة .. حتى لدى إحساسنا بتوقف التفاتنا أو شعورنا بتمام الاسترخاء .. وقد يثير ظهور صورة ما خلال ذلك قد يثير التفاتنا أو انشغالنا فيمسك بها الوعى ويمسك

(*) المال ٢٤/ ١٠/ ٢٠١١

بما يتصل بها وبصور أخرى تتداعى إلى أن ينفض ذلك العارض .. إذ ينقلب إلى اهتمام يحرك الإرادة إلى مقصود أو غرض معين .. وبصور وأفكار لتحقيق ذلك الاهتمام .. أو حكاية ما سبق أن بذل من أجل تحقيقه ولم يتحقق .

ذلك لأن الاهتمام يتضمن إما عقد إرادة واستهداف غاية ، وإما ذكرى إرادة خابت أو غاية لم تتحقق . وهذان يخرجان ما يلوح فى وعينا من التعاقب اللاإرادى المتوالى إلى الإثارة المقصودة التى تستحث الذاكرة والحواس .

والعلاقة بين وعى الآدمى وذاكرته ومخيلته ، علاقة حميمة عميقة لا نعرف بالضبط ميكانيكيتها ، ولكن نعرف أن المصدر الدائم لهذه الصور والأفكار هو الذاكرة والمخيلة وكل ما يتصوره وعينا .. مما هو مسجل فى جعبتها تسجيلا قريبا أو بعيداً .. قابلا للتعديل المستمر بالحذف والزيادة مما لا يشعر به وعينا إلاّ بعد حصوله .

ذلك أن أمانة الذاكرة والمخيلة ، إن جاز التعبير ، هى بطبيعتها أمانة نسبية .. ولكن الآدمى يصلّب هذه الأمانة فى أحيان كثيرة بالتكلف والتخشب .. والآدمى إذا أفشى الصورة أو الفكرة إلى آخرين ، يلزم نفسه بصحتها ودوام صحتها .. وعندئذ يشعر بأن كرامته تستلزم ثباته عليها .. ويحس بأنه إن أضاف إليها أو عدَّل فيها سوف يتعرض لاتهامه بالكذب أو بعدم التثبت من صحة ما يقوله أو يبديه .

وقد اعتدنا على الاعتماد فى حياتنا الاجتماعية والعملية على الاحتكام كشرفاء إلى الأصول الأخلاقية السائدة فى بيئتنا وقيمتها وافتراض الالتزام بها عند الشريف والعكس عند غيره .. وهذا فيه تجاهل لنسبية أمانة الذاكرة فى التسجيل والحفظ وتعرضها الدائم للتغير القليل أو الكثير حسب تغير

إمكانياتنا وأعمارنا وأحوالنا الصحية والعقلية والنفسية .. تغيّراً بعيدًا عن تعمد الكذب أو الخديعة .. وهو تغير يجعلنا نحتكم إلى حد ما دون أن نتنبه إلى إثبات شيء غير ثابت بطبيعته وطبيعتنا.. وهذا الخلل لم يكن منه بدّ .. ذلك لأن وجود الآدمى على هذه الأرض سبق ويسبق نمو معارفه .

وحتى الآن لم ينجح عاقل فى تحقيق تطور أفكار البشر وأحكامهم وتصوراتهم ومصدقاتهم بحيث يمكنها مسايرة ما بين أيديهم من المعارف المتطورة .. هذه المعارف التى يضمن الالتفات إليها وأخذها فى الاعتبار يضمن مزيدًا من الانسجام والسلام الخاليين من التناقض الظاهر وغير الظاهر الذى يشوب فهمنا لحقائق الحياة فى حدود استعداداتها وملكاتها وأجهزتها ..

وهذا حاصل ويحصل برغم أن الآدمى فيما يبدو لا يكف عن استخدام الكثير مما فطن إليه من الاستعدادات الكائنة فيه استخدامها فى الانتفاع بما معه وحوله من الأشياء والطاقات لتحقيق أغراضه الحاضرة والمستقبلة التى يتوقع الكائن تحقيقها .. وهذه الأغراض تتسع آفاقها باطراد مع نجاح الإضافات التى يضيفها باستمرار بفضل ما قصد الفطن إليه مع توالى الأجيال والأحقاب ونمو القدرة على التذكر والفهم ومع الوصول بما أحرزه إلى ما لم يحرزه بعد مما يتصور الفرد أو يطمع فى إحرازه .

من تراب الطريق (٥٣٧) ماذا يتعاقب على وعينا ؟!(*) (٢)

إن السعة التى وصل الآدمى إليها الآن فى البلاد المتطورة ، فى الفهم والقدرة على التعبير عنه باللغات والإشارات والأدوات والأجهزة ومما لا يكاد يحيط به الإنسان العادى هى سعة غير مسبوقة ، لازمها احتشاد الأفكار والآراء والمعارف .. وذيوعها وتسجيلها بما لم يسبق له نظير .. وكل ذلك فتح أبواب التعارض والتصادم والشك والحيرة على مصراعيها .. وظهرت فى أوساط العامة الجرأة العنيفة فى التفكير والتصور بعد أن كانت خاملة أو خامدة .. وظل الحكم المطلق الذى دام دهوراً وأحقاباً ظل يُصادف هذه الجرأة العنيفة التى وجدت حريتها وانطلقت فى جميع الاتجاهات .. ما يبدو منها حسناً وما يبدو غير حسن .. نافعاً أو ضاراً .. صحيحاً أو باطلاً .. واقعاً أو خيالياً .. إلى أن تجد هذه الجرأة العنيفة من يضبطها أو ما يضبطها من داخلها .. ولكن السؤال : هل يمكن الآن ضبطها من خارجها . وهل يمكن قيادها بحزم فى طريقها الطبيعى من أيد خلاف بيئتها ومحيطها ؟!

يبدو أن أغراض البشر فى جماعاتهم اختلفت فى تحديد من يكونون حكاماً ومن يكونون محكومين .. واتفقت فى نشدان القوة المحسوسة الملموسة والتنافس عليها كلٌ بوسائله التى تتيحها أو تهيئها له طبقته .

كانت وسائل الحاكمين هى القوة المستندة إلى سطوة الأتباع والأعوان .. القوة التى لا غنى للحاكم عنها .. يخيف بها سواد الناس ويخضع بها مقاوميه

(*) المال٢٥/ ١٠/ ٢٠١١

ومعارضيه ، أو يفضى بها عليهم فتدين له الأنفس والأموال فى الجماعة ، ثم يجيء دور استمالة الحاكم للمحكومين بالأبهة والعزة ، وبالإحسان والرعاية ، وبالالتفات إلى الكبير والصغير .. بينما كانت وسائل المحكومين وسائل فردية .. عديدة متفرقة .. تتقاسمها الطبقات والفئات والطوائف والمهن والتجارات والحرف والصناعات والزراعات والتعدين والصيد وتربية الحيوان ووسائل النقل فى البر والبحر والجو .. هذه جميعاً تبتغى الثروة والمزيد من الثروة التى تكفل لصاحبها ولورثته من بعده احترام وتلبية وخضوع الآخرين .. فالمال قوة لا نظير لها ومحل احترام على كل حال وفى كل عصر .. هذا المال لا يعنيه ولا يهمه البكاء على الحرية والأحرار ، وإنما يهمه التراكم والاكتناز ورواج الحال .. لذلك يميل أصحابه ، طلباً للأمان ، للتوافق مع السلطة ودعمها ومناصرتها وتحاشى الاصطدام بها .. وتجدهم أسرع الفئات إلى تأييد الانقلابات والقوى الراجحة فى الفتن والثورات ، ولذلك يكونون أسرع الجالسين على مقاعد الحكم حين تستوى سدته للقائمين بالثورة أو الفتنة أو الانقلاب !!!

ولا يزال الجرى وراء القوة المحسوسة أول الغايات فى مجتمعات الآدميين على اختلاف حظوظها من التقدم والتأخر .. ولا تزال هذه القوة هى سناد أو عماد تقدم العلوم والمعارف والفنون والآداب والصناعات .. ذلك التقدم الذى تجاوز إلى الاستعانة الهائلة بالطاقات والمجالات إلى توجيه وتحريك آلات وأجهزة السلم والحرب فى كافة الأغراض وبقوة ودقة لم يكن يتصورهما البشر من قبل .. من أبعد البعيد فى الفضاء اللا محدود ، إلى أقرب القريب فى الجزىء والذرة .

بذلك كله مما تعاقب ويتعاقب على وعى البشر وفهمهم دخلوا فى عصر رهيب .. فيه يتبارى البشر وجماعاتهم ويتنافسون فى استخدام قدرات وقوى لا تعرف حداً .. سواء فى الإعمار أو فى التخريب .. فى الإحياء أو فى الإهلاك والإفناء .. وتجلى أثر ذلك فى عجز البشر الحالى عن إصلاح أحوالهم وتهذيب أغراضهم .. وزادت مخاوفهم وزاد طيشهم واندفاعهم نحو امتلاك تلك القدرات والقوى التى لا ترد ولا تصد .. بات الأمل فى بقاء البشر محدوداً فيما يبدو لمن يتأمل مصيرهم .. وبات التطور العظيم فى المعارف والعلوم وتطبيقاتها العجيبة المذهلة بات أقرب إلى النذير منها إلى الإرهاص بالخير والبشارة بالمزيد من التعقل والاعتدال والصبر ومعرفة قيمتها فى فهم نواميس الوجود ناهيك باحترامها والانتفاع بها والعيش فى ظلها !

من تراب الطريق (٥٣٨) ماذا يتعاقب على وعينا ؟!(*) (٣)

إن كل ما مع الإنسان من تقدم فى الإدراك ، بل كل ما معه من الحياة والوجود ، ينتهى إلى غير رجعة وتطوى صحيفة البشر وتنمحى معالمها إن قامت فيما بينهم حرب نووية يستعمل فيها البشر كل أو جزء المخزون الذى لديهم الآن من قنابلها وصواريخها ومعداتها وموادها وأجهزتها . وحين تطوى صفحة البشر وينمحى وجودهم لن تبكى عليهم سماء ولا أرض !!

لم يجزع عموم البشر من هذا البلاء الشامل ، ولم يتخذوا حذرهم منه بترك الغرور والحماقة والولع بالشقاق والخلاف والاستخفاف بإشعال الفتن والثورات والمعارك والحروب ، ولم يفيقوا من استخفافهم العجيب بالعيش فى عالم بات مهدداً بالدمار والفناء .. وسلخوا فى ذلك أكثر من ستين عاماً بدأت بتصور احتكار سر صنع هذا البلاء الشامل للتسيد على العالم بالاستناد إليه .. فلما فشا سره ، سارعت الدول على اختلاف أحجامها وإمكانياتها وتقدمها إلى التنافس على اقتناء حظها من هذا البلاء المدمر بالصنع أو بالتطوير أو بالشراء .. وأنفقت فى سبيل ذلك ما تقدر وما لا تقدر عليه ، دون أن يتفطن المتسابقون إلى أن ذلك قد يؤدى فى لحظة !! إلى ضياع كل شىء وضياع الكل بمن فيهم من تنافسوا لحيازة هذا السلاح المدمر .. وما زال هؤلاء غرقى صباحًا ومساءً دون أن يصغوا إلى صياح العقلاء فى كل

(*) المال ٢٦/ ١٠/ ٢٠١١

بلد بالتحذير والإنذار قولاً وكتابةً وتصويراً من عواقب هذا البلاء .. أسرى لغفلة تكاد تكون تامة ، وانغلاقاً فى الأساليب والعادات التى كانت سائدة قبل اختراع ووجود هذا البلاء المميت الشامل .. وتضيع سدًى تحذيرات العقلاء الذين لم يعد لهم حيلة فى إيقاف هذا الطوفان المغرق الذى غمر أحوال البشر !

إن سيطرة العادات الفكرية والسلوكية على حاضر البشر ومستقبلهم ، تقريب أقوى دلالة من كلمة عقولهم .. وهذا إلى وقت قريب من أسباب بقائهم وشقائهم معا .. ولكن مع وجود أسباب هذا البلاء الشامل وانتشارها جدا صار انقضاضه محتملا ومعه انتهاء البقاء وشمول الفناء !!

وما زال وعينا على حالته .. يسيل عشوائياً فى غالب الأحوال كمجرى الماء فى المرعى والسهل .. يقابل الوهدة ويلتف حول الصخرة ويتجاوز المرتفع .. منحرفا عنه منقاداً فى ذلك إلى فطرته متأثرا بطبيعة مجراه وأجوائه .. يمتلئ وقتا وينضب أوقاتا .. لا يغير فيه شراع العقل والفهم شيئا إلاَّ فى حدود مسافات يبدو أنها لا تحول دون اندفاعه إلى جفاف فى صحراء أو إلى انتهاء فى بحر . وكل منا قطرة من قطرات السيل تنتهى فرديتها حتماً أثناء مسيرته بعد أن تؤدى حصتها التى لا تشعر بها فى جريانه ومعها وعيها الفردى المؤتلف من وعى آخرين ماضين ومعاصرين بعد أن ينتقل بعض محتواه لمن يجل ذلك المنتهى الذى لا يبالى به أحد بعد انتهائه .. فلا يعزه أحدٌ ولا يعرفه أحد حتى الوارث الذى ورث تركة الراحل ولا يعرف كيف ينتفع أو يضار بما كان من وعيه .

والمجلدات التى ليس لها حصر الموجودة فى المكتبات العامة والمكتبات الخاصة وفى دور الكتب التى تعنى بإقامتها الدول المتقدمة هذه المجلدات

فيها آثار من قطرات بشرية معظمها انتهى ولم يبق منها ما يشهد على حياتها الفردية إلاّ الأسماء فقط .. هذه الأسماء التى لا يحفل بها كثيراً من يطلع على هذا المؤلف أو ذاك أو يقتنيه ليطلع عليه أو لا يطلع إن سمح وقته بالاطلاع عليه !

ويتكون من حصيلة الاطلاع والاقتناء من لا عداد لهم من الأفراد .. ودون أن يعرف بعضهم بعضا أو يتعارفوا .. ويزيد ذلك فى شيوع المعارف والمعلومات والآراء والمصدقات والمعتقدات من الأفراد إلى المجاميع والجماعات التى تعيش وتستمر برغم فناء الأفراد المحتوم وانتهاء أعمارهم المحدودة بما كان فى وعى كل منهم مما قد لا يسبر أغواره أو يتعرف على أعماقه وتراكيبه أحد !

وبديهى أن حياة الفرد مهما يكن حظه من الدنيا أغنى بكثير بفضل ما جهزه الخالق عز وجل به من أعضاء وأجهزة وملكات واستعدادات ، وما هيأه له سبحانه وتعالى من فرص وإمكانات أغنى بكثير جدا مما يتركه بعد وفاته .. كثر أو قل . ويبدو أن هذا الغنى ليس مقصوداً لذاته وإنما لأجل ما يمكن أن يتركه للمساعدة على بقاء الجماعة البشرية والمجتمع والنوع !